من سلسلة «شذى المؤمنة»

حكمة الطفولة

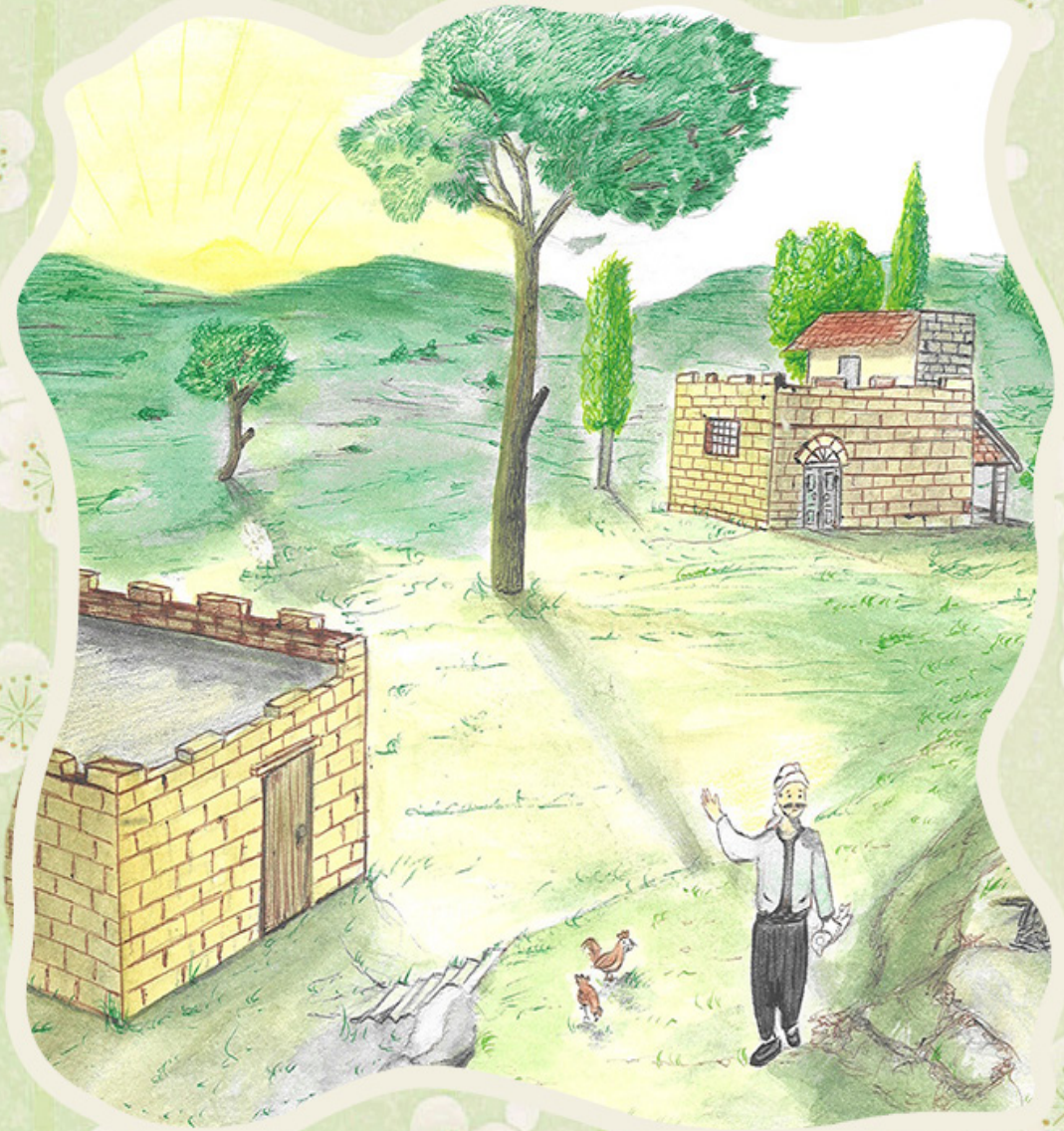

من سلسلة «شذى المؤمنة»

حكمة الطفولة

موافقة مشيخة العقل

بتاريخ ٢٠١٦/٤/٤

منشورات

المجلس المذهبي لطائفة الموحّدين الدروز

اللجنة الدينيّة

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

١٤٣٦هـ – ٢٠١٦ م

تأليف:
هنادي غانم

رسم: شادي خدّاج
إخراج: ريما وهبي

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين. والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيّين وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدِّين.

إنَّ بناء مجتمع توحيدي إسلامي على أسس قويمة وصحيحة يحتم علينا العمل على توعية الأجيال الصاعدة وصقل أذهانهم وأفكارهم بما يتناسب مع ثقافتنا وتقاليدنا وأعرافنا، ومن هنا كان توجه اللجنة الدينية في المجلس المذهبي لطائفة الموحدين الدروز وبمباركة مشيخة العقل إلى وضع خطة جدية للعمل على تحقيق هذه الغاية، وكانت الانطلاقة في تأليف مجموعة قصص قصيرة، هادفة ومفيدة، تساعد الأجيال على تلقي الأفكار بطريقة سهلة واضحة وتلبي احتياجات الأهل في توجيه وتربية أبنائهم وتسهم في نشر التعاليم الدينية الراقية وإحياء الأخلاق والعادات المعروفية بأسلوب منفتح.

اللجنة الدينيّة

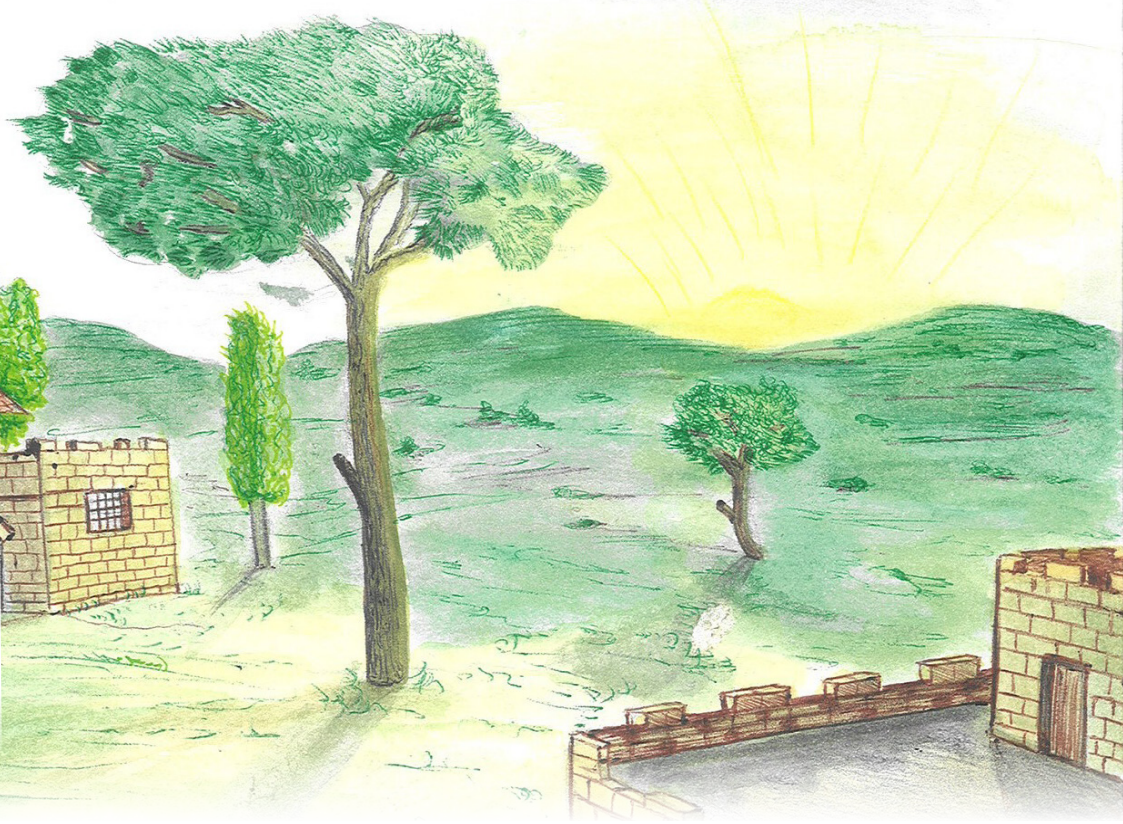

بدأ اللّيل يلملم بقاياه من زوايا القرية، مستعدًّا لتسليم المكان إلى الفجر، فاستيقظ الدّيك يُعلن بداية يوم جديد من عمر الإنسان، يرسل صياحه الذي هو أشبه بصلوات شكر لاستمرار الحياة، يدقّ به أبواب النّاس، يوقظهم، يذكّرهم بضرورة النّهوض باكراً للعمل، ولتحصيل أرزاقهم بعرق جبينهم.

هنيهات قليلة وبدأت المصابيح الضئيلة تبعث ضوءها في البيوت القديمة، وراحت أصوات ثغاء الماعز ومأمأة الخراف تتعالى في الحظائر، يصحبها قوقأة الدّجاجات وتغريد العصافير. استيقظ الفلّاحون وبدؤوا يهيئون أنفسهم للانطلاق نحو الحقل.

دبّت الحياة في القرية بعد أن حاك الفجر أولى خيوطه، وترافق مع أفواج الرّعاة والفلّاحين، وقرع أكف النّسوة يخبزن ليتنفّس نسيم الصّباح رائحة الخبز الجبلي الممزوج بعطر المحبة والبركة.

- "عالبركة"

- "تفضل جابرنا"

سلام صباحي أرسله الفلّاح "سليمان" إلى إحدى النّسوة وهي تخبز، وتابع سيره نحو الحقل القريب الذي كان يعمل فيه أجيرًا. وما إن وصل إلى ذلك الحقل حتّى شعر بأن الأرض تنسلخ عن بعضها لتخبئه في خفاياها.

– ما سبب تأخّرك هذا يا سليمان؟ هل نسيت أنك أجير في أرضي؟ هل أدفع إليك أجرك لتأتي متأخرًا إلى عملك، وعلى راحتك؟

كلمات كان عادل بيك يطلقها بشراسة ونزاقة، فيصب حقده على عمّاله الفقراء، وكأنّهم يذكّرونه بأيّامه الغابرة التي عانى فيها تحت وطأة الفقر والجوع، قبل أن ينتفض بين ليلة وضحاها على الفقر ليصبح غنيًّا متعجرفًا فاقدًا لمعاني الرّحمة والرّأفة.

– العفو يا بيك، ما نسيت يومًا أنني عاملٌ أتقاضى أجري منك. ولكن...

– وتجيب أيضًا قبل أن تقبّل يدي طالبًا المغفرة على جرمك هذا؟!

– يا بيك! هل تعتبر تأخّري ربع ساعة جرمًا؟

– طبعًا! إذ إنّ كلّ دقيقة تأخير تخسّرني آلاف اللّيرات.

– سامحني إذن يا بيك، وأعدك أنني سأعوّض عليك، وأبقى بعد الظّهر نصف ساعة إضافية.

– بالطّبع ستبقى ولكن حتّى ساعات المساء، وسأخصم نصف أجرك اليومي ليكن تأخّرك اليوم درسًا لك ولكلّ العاملين.

– حسبنا اللّه ونعم الوكيل.

قالها سليمان بصوت يختنق من مرارة الظّلم والقهر، وتراجع إلى الوراء وهو يقول في نفسه ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ الذاريات ٥٧-٥٨ ثم حمل المعول وتوجّه إلى الأرض مسلّماً أمره إلى الله.

أمّا العمّال في الحقل فكانوا يعملون بجدّ يحوم حوله الخوف والرّعب، وكانت أيديهم تشذّب الأغصان بهلع متقطّع، وعيونهم تحدّق شاخصةً تارة إلى البيك لترى ملامح وجهه القاسية، وتارة إلى رفيق دربهم المرير "سليمان"، محاولة تمرير نفحات سلام وشفقة على وضعه المأساوي. وقسم آخر كان ينقل الحجارة لتأسيس حائط عريض يحمي حدود مملكة الطّمع والجشع.

وعندما دقت ساعة الفرج تعلن الخامسة، تبسّمت أسارير وجوه الفلّاحين، إلّا "سليمان" الذي ضاق ذرعًا من قساوة العيش تحت رحمة الظّالم "عادل بيك". فراح الفلّاحون يجمعون أغراضهم، والشّمس تجمع خيوطها الذّهبية استعدادًا للمغيب. في هذه الأثناء اقترب "يحيى" من "سليمان" وهمس في أذنه قائلًا :

– سوف أعود بعد أن يرحل الجميع، فأساعدك وأخفف من ظلمة وحدتك.

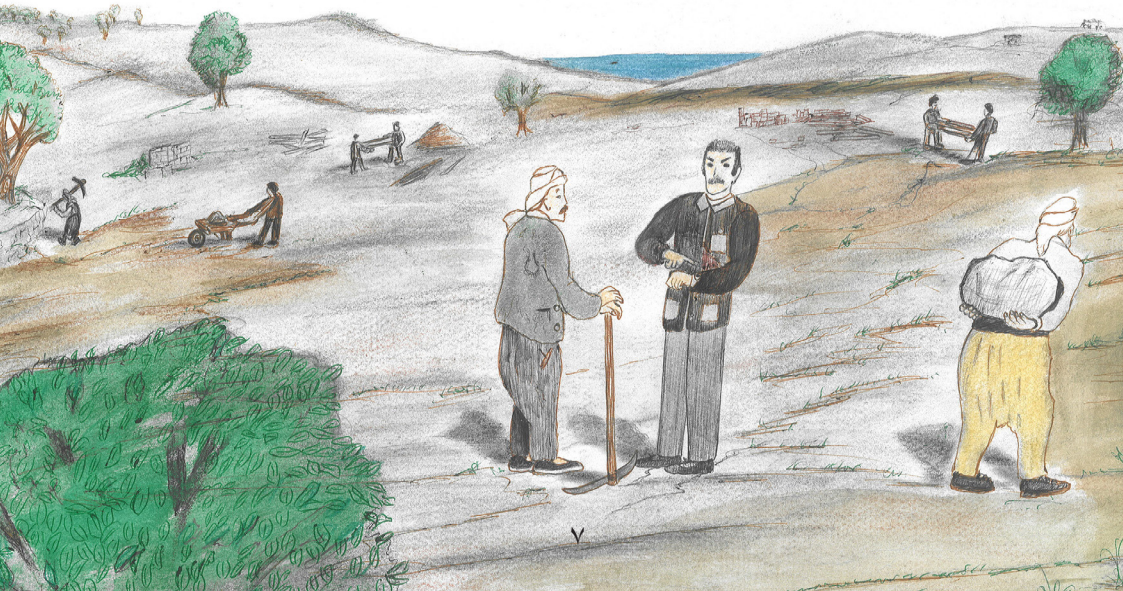

– أشكرك يا أخي، لكنّ اللّه سبحانه يؤنسني بوحدتي، ويخفف من أوجاعي.

– ونعم باللّه رفيقًا وأنيسًا. ولكن، لم أسألك عن سبب تأخّرك؟

– وما يكون السّبب في العادة؟

– ابنتك "شذى"؟ أعانك الله على مصابك، وفرّج عنك وعنها.

تنهّد "سليمان" تنهيدات عميقة، وتابع عمله يحفر في الأرض مهيّئًا أخدودًا ليشكل أساسا للحائط المرتقب. ومع كلّ ضربة، كانت صرخةٌ تتعالى من صدره المتألم، بنفس أبية ترفض الذّل، وقلب متوجّع على صغيرته المريضة، وعقل متفكّر في المصائب التي تحلّ عليه. أضحت الأفكار تتصارع في رأسه وتتسابق كأنها في ميدان، ولم يوقفها إلّا صوت امرأته التي جاءت هلعة تفتش عنه بعد أن تأخر عن العودة.

– سليمان!! أين أنت يا رجل حتّى الآن؟؟ أتنقصني الهموم حتى تشغل بالي عليك؟ ماذا فعلت بدواء "شذى"؟ لعلّ التّاجر لم يقبل أن يعطيك إياه قبل أن تدفع نقدًا؟

– هو كذلك. فأنت تعرفين بأن الرّجل ينزل إلى المدينة لجلب حاجات القرية. وهو يتكبّد مصاريف الطريق، ولا يستطيع أن ينتظر أحدًا ليدفع له بعد فترة.

– يا إلهي! وماذا عسانا نفعل؟ وكيف ستصبر هذه الصّغيرة على أوجاعها والمرض يأكل من جسمها الضعيف.

– عودي إلى المنزل، وكوني معها، وادعي الله سبحانه أن يرحمها.

– وأنت بالطّبع طلبت من البيك أن تعمل ساعات إضافيّة لتتقاضى أجرًا إضافيًّا، فليساعدك الله. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ * إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ الاسراء ٣٠

تركت كلماتها تردد صداها في أذنيه، وقامت تمشي بثقل إلى بيتها، أمّا هو فجلس القرفصاء يحاكي همه. ماذا يقول لها؟ هل يخبرها أنه يعمل مجانًا لقاء تأخّر صباحيّ؟ أم يخبرها أن الأجر الشّهري الذي سيتقاضاه بعد عدة أيّام سيخصم منه، وبالتّالي لن يستطيع تأمين ثمن الدّواء لصغيرته... تنفّس الصّعداء وتابع عمله، وإذا بضربات معوله تحطّم شيئًا، ويسمع طرطقات خفيفة منسابة من بين التّراب. فيمدّ يده ويقبض على حفنة من التّراب الصّلب ويقرّبها من عينيه ليرى المفاجأة. ارتعش قلبه خوفًا وفرحًا... ما هذا الذي يراه؟؟ ليرات ذهبيّة تشع بريقًا كقلبه. انتهى زمن اليأس والخوف، زمن المرض والفقر قال في نفسه: "لم أعد بحاجة إلى شيء سأجمعها وأعود إلى بيتي أفرشها تحت قدمي طفلتي المريضة، وأمّي العجوز، وزوجتي البائسة."

جمع كلّ اللّيرات التي استطاع رؤيتها وأخفى بقايا الجرّة المكسورة، وحمل زاده وعاد إلى منزله مسرعًا، مزاحمًا الهواء، قاطعًا المسافة التي تفصل الحقل عن القرية كالسهم. ووصل إلى بيته فدخله ضاحكًا ، وألقى التّحية على أهله، ثم ركع وقبّل يد أمّه، وقبّل صغيرته التي كانت تقرأ في كتاب عتيق، ونظر إلى زوجته التي كانت متفاجئة بأسارير وجهه المبتسمة، وكأنها تسأل نفسها، ماذا جرى له وقد عاينته منذ قليل عابسًا، مهمومًا، حزينًا. أوصد الباب جيّدًا، وعاد إليهم يقول:

– كنت خائفًا أن أعود إليكم الليلة خالي الوفاض، لا أحمل أملًا لطفلتي بشراء دوائها.

– كنت خائفا؟ وهل وجدت الحلّ؟ هل حصلت على المال؟

– طبعا يا زوجتي. والله أكرمني به.

– من أين؟ وكيف؟

– من عنده.

– أنا لم أفهم. هل تقصد بأن عادل بيك أقرضك بعضه؟

– عادل بيك! هو أشدّ طمعًا وحقدًا من أن يساعدني. وقد جعلني أعمل ساعات إضافية بسبب تأخّري صباحا. وخصم نصف راتبي اليومي.

– هو فعل ذلك؟ ولماذا؟؟

فعلا صوت فتاته الصّغيرة "شذى" تقاطع حوار والديها قائلةً:

– كل هذا حصل بسببي يا أبي؟

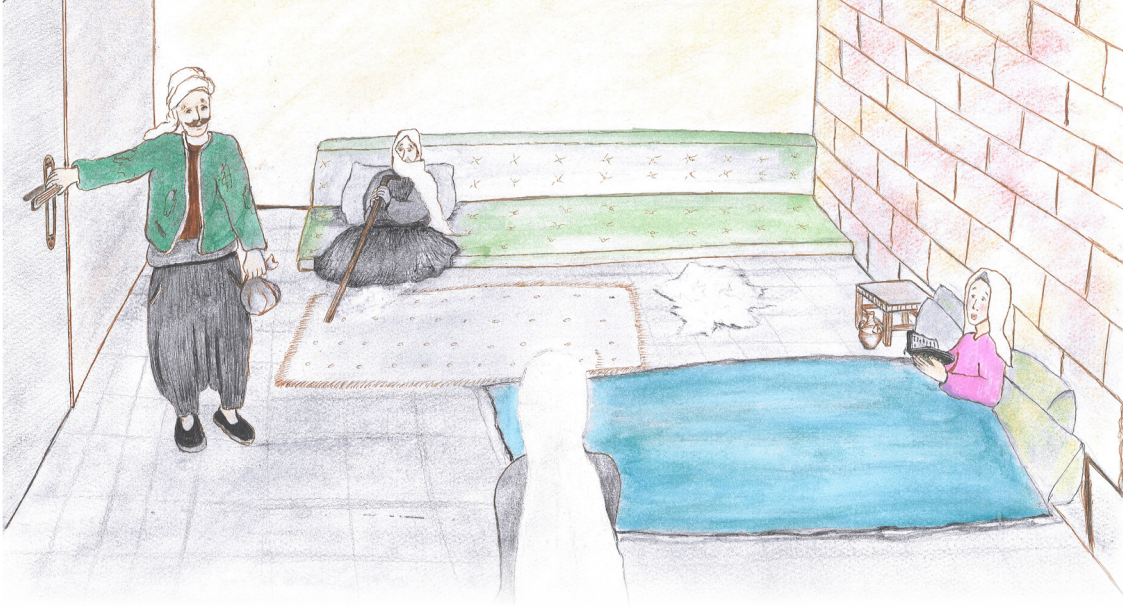

– "بل إن الله سبحانه أكرمني بسببك."

وفتح كيسًا أفرغ منه ليرات ذهبيّة اختطفت أنظار الجالسين.

– يا إلهي! صاحت والدته العجوز. من أين أحضرتها يا ولدي؟؟

فأخذ سليمان يقصّ حكاية يومه الحزين على مسامع عائلته، وراح يخبرهم كيف قضى نهاره متوسلا إلى خالقه ليساعده ويفرج عنه محنته، إلى أن انتهى النّهار، وانتهت معه مأساته عاثراً على كنز في باطن الأرض. وكيف أنه سيخرج باكرا في اليوم التالي ليشتري الدواء لصغيرته. ويغدق عليهم بالطّعام والثّياب، ويعطي كلّ المحتاجين في قريته. ثم نظر إلى طفلته وقال لها:

– وسأدخلك المدرسة بعد أن تتغلبي على مرضك يا حبيبتي.

– سامحني يا أبي. لقد جعلتك أسير مرضي، ولم تعد قادرا على التفكير في القيم السامية في الحياة.

تعجب الأب من ردة فعل الصّغيرة وطلب إليها أن توضح قصدها، فقالت:

– لقد أعطانا الله سبحانه نعماً كثيرة، وأفاض علينا من خيراته طيلة هذه السنوات، لكنّ اللّيرات الذهبيّة التي عثرت عليها لست أراها إلا امتحانًا لصبرك ونزاهتك في هذه الحياة.

– امتحان!!! وأي امتحان يا ابنتي؟ فأنا بحاجة إليها!

–يا أبي: هذه اللّيرات الذهبيّة لم تجدها في أرضك، إنما في أرض غيرك. فأخذ شيء ليس هو لك يُعَدُّ سرقة. كما أن المال الذي تأخذه من غير تعب ولا يمتزج بعرق جبينك ليس بحلالٍ، هكذا علّمتنا، فهل تريد أن تعالجني بمال حرام مسروق؟؟ وهل تريد أن نغيّر إيماننا وقيمنا مقابل أوّل صعوبة وأوّل امتحانٍ في حياتنا؟ ثم توجّهت بالدعاء الى الله تعالى قائلة: ﴿.. رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا* رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ

عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا* رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ* وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا* أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ سورة البقرة ٢٨٦

ارتعد الوالد لوقع هذه الكلمات ووجد نفسه أمام طفلة صغيرة كأنها كبرت دفعة واحدة، ولم يعد قادرا على امتلاك نفسه عن البكاء. ماذا يقول لها، هل يغالطها وهي تنطق بدرر؟ أم يجافيها وهي تأخذ بيديه لتعبر به إلى شاطئ الخلاص؟؟ هي صاحبة الدّاء تخبره بالدّواء الحقيقي. فمسح دموعه وقال لهم:

– وماذا أفعل الآن؟ هل أعيد الليرات إلى مكانها؟ أم آخذها إلى عادل بيك؟

فتقدّمت أمّه العجوز قائلة:

– يا ولدي خذها إلى عادل بيك وأخبره عنها، وقل له إنك وجدتها في أرضه وليتصرف بها حسب ما يمليه عليه ضميره.

فنهض سليمان نادمًا وتقدّم نحو صغيرته طالبا السماح على فعلته، معترفا بخطئه وبأنه فعل ذلك من أجلها، وإلّا لما أغرته ملايين الأرض.

ثم توجّه نحو بيت عادل بيك، وطوال الطريق كان يتمتم عبارات استغفار ودعاء يطلب فيها عفو الله ومغفرته، كما إعانته على مقابلة عادل بيك وأن يكون فيها الخير للجميع.

– ماذا تريد يا سليمان؟ وهل نصيبي أن تعكّر مزاجي اليوم؟

– لا يا بيك ، ولكن جئتك بخبر يفرحك.

– خبر يفرحني! ما هو؟؟

فمدّ سليمان يده إلى جيبه، وأخرج صرة ودفعها إليه.

– وجدت هذه اللّيرات في حقلك اليوم، وقد جئتك بها.

عقدت الدّهشة أسارير عادل بيك، وراحت عيناه تغزل بشكل دائري، أخذ الصّرّة وجثا أرضا وفتحها، ثم شرع ينظر إلى ما فيها بحنان ممزوج بطمع، ثم انتفض فجأة قائلاً:

– أين وجدتها؟ هل أخذت منها شيئا؟ هل علم أحدهم بها؟ تعال يا صديقي الوفي وأخبرني. لا يجدر بك أن تقول شيئا لأحد، وإلا...

– لا يا بيك لم يعلم أحد من العمال بوجودها. لكن لي طلب وحيد: أن

تعطيني أجري الشهري دون أن تخصم منه شيئاً فأنا بأمسّ الحاجة إليه.

– حسنا!! حسنا!! سأعطيك إياه كله.

دفع إليه أجره الشّهري وطلب إليه أن يبقي على السر، ثمّ شكره على أمانته، وطلب منه الانصراف.

وفي اليوم التّالي أفاقت القرية على وقع قهقهات في بيت "سليمان"، ونسوة يشكرن الله سبحانه على نعمة تحسّن الطفلة "شذى" بعد أخذها الدواء، وهمس رجال يسألون عن سبب الفاجعة التي حلت في عادل بيك، بعد أن وُجِدَ هو ورجل آخر مقتولين في بيته مع صرة ذهب مطروحة بالقرب منهما. هكذا تفعل الدّنيا بأهلها، ويبقى الصّبر بلسم المؤمنين، والهلاك عاقبة الطّامعين.

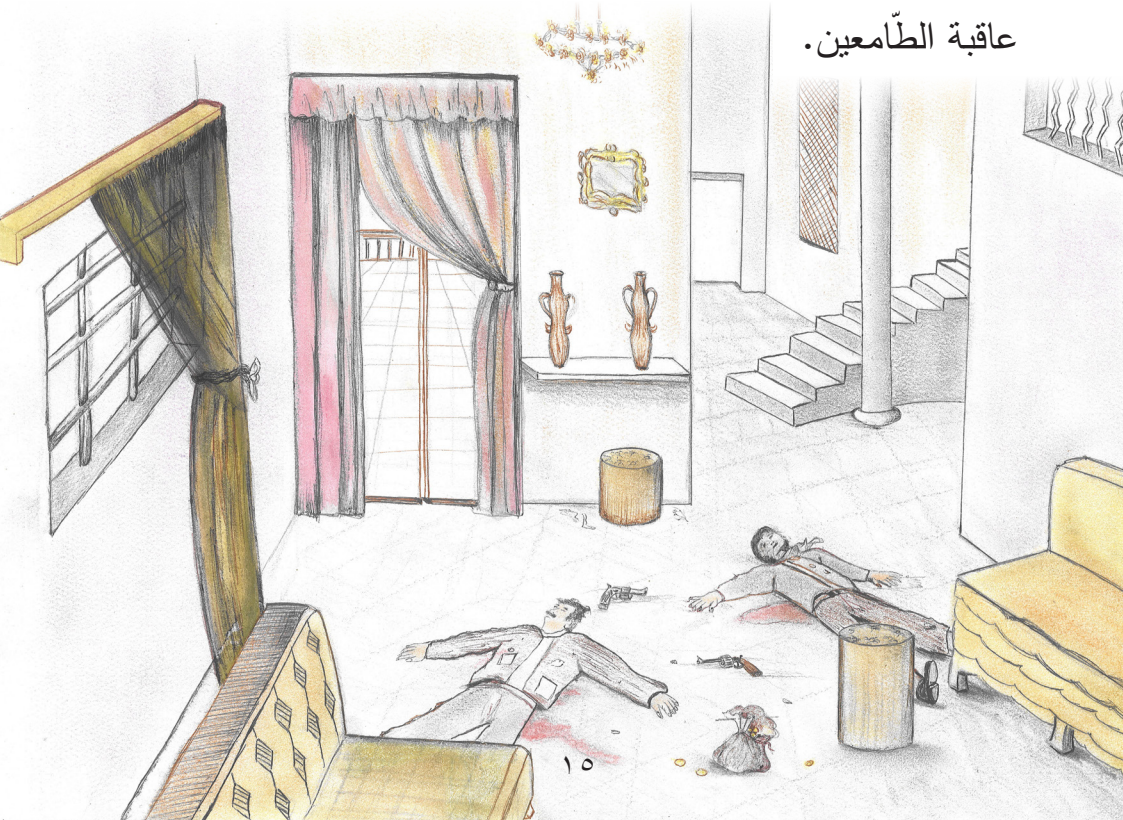

من سلسلة «شذى المؤمنة»

١- حكمة الطفولة

منشورات
المجلس المذهبي لطائفة الموحّدين الدروز
اللجنة الدينيّة

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©